

اسم المصاحبة "مع" وعلائقه بنظام الظرف
عند النحاة العرب

علي العشي
تونس

لقد انطلق العرب في تقسيم الكلام من مبدأ رأوه كونياً ينطبق على كل اللغات البشرية وهو أنّ الكلام البشري ينقسم ثلاثة أقسام، وفي هذا الصدد يقول المبرد: "الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، لا يخلو الكلام - عربياً كان أو أعجمياً من هذه الثلاثة" (١).

ولئن كان هذا الموقف ملائماً في جوهره لخصائص العربية فإن تعميمه مستحيل لأن كل لغة تخضع لنظامها الخاص. وهذا التعميم لدى النحاة العرب ناتج عن إيمانهم بأن العربية أفصح اللغات وما عداها يقاس عليها، وقد حدد ذلك منهجاً معيناً في وصف العربية إذ إنهم رأوها تمثل نظاماً بلغ درجة الكمال، وليست وظيفة النحاة إلا الكشف عن أسرار هذا النظام، فأهملوا موازنتها باللغات الأخرى وحصروا جهودهم في وصف البنى الصرفية والتركيبية وتعليل ما سمع من العرب أو ما قيس على كلامهم.

وقد كان لهذا التوجه - على الرغم من جذوره الحضارية المتمثلة في التسليم بتفوق العرب والعربية - مردوده العلمي، وهو تمكّن النحاة من حصر الظواهر المهمة التي تبرز نظام العربية.

ولقد كان هذا النظام اللغوي عميق الصلة بمشاغل المجتمع العربي الإسلامي، ولذلك فإن النحو العربي قد توافر فيه شرط "الكفاية" أي إنه، مع ما فيه من عمق نظري، قد صيغ صياغة تلائم حاجة المجتمع، ثم إن المحافظة على الفصحى منذ القرن الثاني قد تحققت في إطار هذا البناء النظري المتناسق.

(١) المبرد: المتضرب، ج ١، ص ٣.

ولذلك فإنه على المعاصرين الذين يحاولون التجديد أن يتعمقوا في تحليل ما اشتمل عليه النحو العربي من نظريات أساسية، مع الاهتمام بالقضايا التي احتلت مرتبة دنيا في التراث النحوي، أو عرضت على أنها آراء خاصة لبعض النحاة، إذ إن هذا النوع من التعامل من شأنه أن يساعدنا على إدراك مقاصد النحاة وتحديد تصورهم لوظيفة النحو، وهو تصور قد أسهم إسهاماً مهماً في صياغة القواعد ووضع النظم النظرية.

إنّ الباحث الذي لا يلتزم هذه المنطلقات قد يتوصل إلى نتائج تتناقض تناقضاً صريحاً مع ما قرره النحاة العرب وهو ما سنبيّنه في هذا المقال بالانطلاق من مثال ملموس متصل بنظرية أقسام الكلام عند العرب ومواقف المعاصرين منها.

لقد نظر المحدثون في هذا التقسيم الثلاثي و صنفوا الكلام تصنيفاً جديداً رأوه ملائماً لخصائص العربية ومناهج البحث اللغوي في العصر الحديث، إلا أن محاولاتهم كانت في جملتها إما تفصيلاً لما أجمله القدماء^(١) وإما اجتهاداً قائماً على التأثير ببعض النظريات اللسانية وموازنة نحو العربية بأنحاء اللغات الأجنبية^(٢) مع اعتماد ما ورد في التراث النحوي من مفاهيم ومصطلحات، وهذا الاتجاه الثاني الذي يتزعمه تمام حسان لا يخلو من اضطراب وتسرع مصدرهما التعامل مع

(١) نذكر من أصحاب هذا الاتجاه إبراهيم أنيس ومهدي المخزومي.

(٢) من هؤلاء تمام حسان وفاضل مصطفى الساقى في أطروحته: "أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة" ط. القاهرة ١٩٧٧م، مكتبة الخانجي.

أما المقارنة فإنها واضحة عند المستشرقين "بلاشير وديمومين" في كتابهما: "نحو العربية الفصحى". ط٣. باريس ١٩٧٨م، وتبرز المقارنة في مستوى العرض والتصنيف لأن هذا الكتاب وضع أساساً لعرض قواعد النحو العربي عرضاً مبسطاً.

-R. Blachère - M. Gaudet - Demombynes: Grammaire de l'Arab classique. Troisième Edition, Paris, 1978.

التراث انطلاقاً من مبدأ يقوم على الرفض واتهام القدماء بالتقصير ووصف نظرياتهم بالاضطراب، وهو ما نلاحظه خاصة عند الدكتور فاضل مصطفى الساقى الذي لا يتورع في كل مناسبة عن مهاجمة القدماء، وبذلك فإننا سنبين في هذا المقال أنه من الحيف أن نهجم القدماء، بل إن هذا الهجوم قد يكون مبنياً على معرفة محدودة، ومواقف تنافي أصول البحث العلمي.

وسنبرز هذا الأمر بدراسة اسم المصاحبة "مع" حسب المراحل التالية:

- ١- رأي المعاصرين في هذه الكلمة وفي منزلتها ضمن أقسام الكلام.
- ٢- رأي القدماء.

لقد عدّ القدماء هذه الكلمة ظرفاً، وهو رأي صادر عن رؤية عميقة وتفكير متناسق، ولذلك فإن هذا العنصر سنخصصه لبيان الأسباب التي جعلت القدماء يعدون هذه الكلمة ظرفاً فنحقق بذلك هدفين معاً، أولهما الرد على من تسرع في اتهام القدماء بالتقصير، وثانيهما يتمثل في تحديد التصور الذي كان سائداً عند العرب لنظام الظرف، وقد جعلنا هذا العنصر مشتملاً على الأقسام التالية:

- أ- دراسة "مع" في مستوى التركيب.
 - ب- تناول هذا الاسم في مستوى الوظيفة النحوية.
 - ج- البنية الدلالية لهذا الاسم وعلاقتها بالوظيفة النحوية وبمعاني الظرف.
 - ٣- خلاصة البحث: وهي تشتمل على تلخيص لأهم النتائج.
- ١- الجاحظ: البخلاء (ت محمد عبدالسلام هارون).

٢- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج ١٧ ط. مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠م.

٣- طه حسين، الأيام، ج ٢ ط. دار المعارف (الطبعة ٥٣، ١٩٧٥م).

إن هذه المدونة التي كانت مصدراً للشواهد الخاصة باسم المصاحبة "مع" تتركب من نصوص نثرية لأن النثر يمثل الاستعمال الذي نلمس فيه مظاهر التصور ووجوه التصرف الناتجة عن نزعة المؤلف إلى الملاءمة بين الشكل والمضمون، فالجاحظ مثلاً قد يصوغ التركيب صياغة خاصة لوصف سلوك البخيل أو عرض وجهة نظره، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأصفهاني وطه حسين فهما يتصرفان في التراكيب حتى تكون مناسبة للمعنى دون خروج عن المعايير الكبرى التي وضعها النحاة أو تجاوز "لسن العرب" في كلامها.

وقد وقفت عند طه حسين لأن النثر بعده قد اتخذ منحى جديداً في أساليبه وطرق تعبيره.

١ - اسم المصاحبة ومنزلته ضمن أقسام الكلام عند المعاصرين:

لقد صنف المعاصرون هذا الاسم ضمن الأدوات، وهو قسم من أقسام الكلمة يشتمل على الحروف حسب تصنيف القدماء، ومجموعة من الكلمات قد وضعها القدماء ضمن الأفعال أو الأسماء.

إن الأدوات في رأي المعاصرين عبارة عن مجموعة من الكلمات تجمع بينها خصائص مشتركة تميزها من سائر أقسام الكلمة. ونلاحظ أن مصطلح "أداة" ليس جديداً بل استعمله القدماء بمعنى الحرف أو الاسم^(١) كما أنهم استعملوا لفظ الحرف بمعنى الكلمة مهما كان نوعها^(٢).

إن المعاصرين استعملوا لفظ أداة مقابلاً لمصطلح "Particule" أو مصطلح "Préposition" وحاولوا انطلاقاً من ذلك تحديد الخصائص المميزة لصنف الأدوات

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، ٦م، ص ٤٢٣٤، ط. دار المعارف حيث يقول: "فإنه أخرجه مُخرَج الأدوات مثل هل ويل وقد وكم".

(٢) المبرد: المقتضب، ج ١، ص ٥١، حيث يقول: "ومن هذه الحروف (لذن) وهي اسم...".

فكانت في جملتها كما نلاحظ ذلك عند الدكتور الساقى جمعاً بين خصائص الحرف كما تصورهما القدماء، وخصائص الأداة حسب أنحاء اللغات الأوربية، وأدى الأمر إلى أخطاء علمية فيها نصيب وافر من التناقض، وسنعمد أساساً ما جاء في أطروحة الساقى لأنها في جوهرها مواصلة لنهج تمام حسان.

لقد توصل الدكتور الساقى بعد بحث واستقصاء إلى وضع ست عشرة خاصية تتعلق بالأدوات وعدّ "مع" أداة من الأدوات إلا أننا نلاحظ أنّ الخصائص التالية لا تنطبق على هذه الكلمة، والمعروف أنّ الخصائص المميزة لقسم من أقسام الكلمة يجب أن تكون شاملة لكل الكلمات التي تنتمي إلى ذلك القسم.

يقول الدكتور الساقى إنه من خصائص الأداة أنها:

- لا توصف ولا يوصف بها فلا تكون مسنداً ولا مسنداً إليه، بينما "مع" تكون مسنداً في قولنا كُنّا معاً.

- لا تضاف: ولكن مع تستعمل في أغلب الأحيان مضافة كقولنا: جئت معك.

- لا تنوّن: والمشهور أنّ "مع" تنوّن فنقول: "معاً".

- انها مبنية: لكن "مع" عدّها النحاة اسماً معرباً في "أكثر اللغات"^(١).

- لا تقبل علامات الأسماء أو الصفات أو الأفعال على أية حال:

وعلى الرغم من ذلك فإن "مع" تقبل من علامات الأسماء التنوين والجر إذ

جاء في لسان العرب قولهم: جاءوا معاً، "وجئت من معهم أي من عندهم".

إننا إذا نظرنا في خصائص الأدوات التي ذكرها الدكتور الساقى لاحظنا أنها تنطبق على الكلمات التي وضعها العرب في باب الحرف، فهي تكرر لما ذكره في

(١) السيوطي: همع الهوامع، ج٣، ص ٢٢٧، تحقيق عبدالعال سالم مكرم، ط. دار البحوث العلمية،

الكويت ١٩٧٧م.

لفظ جديد، وقد حاول الدكتور الساقبي تعميم هذه الخصائص على كلمات عدّها العرب أسماء وذلك تظاهراً بالتجديد فانكشف ما في نظرياته من تناقض واضطراب^(١).

أما المستشرقون فقد عدوها حرفاً إذ صنّفها بلاشير وديمومبين ضمن حروف الجر^(٢). وقد حاول المؤلفان التوفيق بين ما ورد في المؤلفات النحوية القديمة وما توصلا إليه بفضل اجتهادهما القائم على مقارنة العربية بالفرنسية، وهو منهج لا يفيد العربية في شيء لأن خصائص الفصحى لا علاقة لها بالفرنسية.

ويرى المستشرق الألماني "برجشتراسر" أن "مع" حرف جر "زادته العربية على الحروف الجارة القديمة"، وأن هذه الكلمة تقابل في العربية كلمة "cim" وبالتالي فإن "مع" العربية مقلوبة من "عم". ونلاحظ أن هذا الافتراض له ما يبرره إذ جاء في "لسان العرب" أن من العرب من يسكن عين "مع" قبل حركة فيقولون مثلاً "زيد مع عمرو" ولذلك فإن هذا القلب قد يكون تبعه قلب الكسرة إلى فتحة لتلائم العين وهي حرف حلقي تلائمه الفتحة "الوسطية" أكثر من الكسرة الأمامية وتكون مراحل القلب على النحو التالي:

"عم (في العبرية) = مع (في العربية) = ثم مع"

وأخيراً = مع إذا وقعت قبل سكون (مع القوم) (العين مفتوحة) أو مع (مع الكتاب) (العين مكسورة)^(٣).

(١) انظر عرض هذه الخصائص في "أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة" ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) انظر: نحو العربية الفصحى ص ٢١٠-٢١١.

Grammaire de l'Arabe classique, p.p. 210-211.

(٣) برجشتراسر (G. Bergstrasser): التطور النحوي للغة العربية، ص ٣٦. ١٦٠-١٦١، تصحيح

الدكتور رمضان عبدالنواب، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض ١٩٩٢م.

[وهذا الكتاب مجموعة من المحاضرات ألقاها المؤلف بالجامعة المصرية القديمة سنة ١٩٢٩م].

إن فتح العين هو كلام "عامّة العرب" أمّا الكسر فهو خاصّ بريعة أي بمن يسكن العين قبل حركة^(١).

ولئن كانت مقارنة العربية باللغات السامية ضرورية بالنسبة إلى الدراسات ذات المنحى التاريخي الزمني، فإن العرب قد التزموا منهجاً آتياً ورأوا العربية نظاماً متكاملًا، ولذلك فإنهم حصروا بحثهم في وصف البنى الصرفية والتركيبية، ولم يهتموا بمظاهر التطور، ولا بد من اعتبار هذا الموقف المنهجي لفهم النحو العربي.

٢- خصائص اسم المصاحبة وعلاقته بنظام الظرف عند القدماء:

إن المقاييس التي اعتمدها القدماء في تقسيم الكلمة كانت متعددة إلا أننا نستنتج أنهم قد انطلقوا أساساً من التقابل بين الاسم والفعل وغلّبوا المقاييس المتعلقة بالوظيفة النحوية فعرفوا الاسم بقولهم: "الاسم في كلام العرب ما كان فاعلاً أو مفعولاً أو واقعاً في حيّز الفاعل والمفعول به. هذا الحد داخل في مقاييس النحو وأوضاعه"^(٢).

إن هذا التعريف يدلّ على أن العرب قد اتخذوا الجملة الفعلية مقياساً أساسياً وعدّوا الجملة الاسمية فرعاً، ثم اتخذوا من مفهوم الإسناد والفضلة معياراً لتمييز الاسم من الفعل، فالاسم هو ما كان مسنداً إليه في الجملة الفعلية أو متمماً. أمّا في الجملة الاسمية الصريحة المركبة من اسمين فالاسم يكون إما مسنداً وإما مسنداً إليه، ولكن المسند قد يكون جملة فعلية كقولنا: (زيد ينطلق) وهذه الجملة الفعلية الواقعة خبراً يمكن تعويضها باسم فنقول: (زيد منطلق).

إنّ المبتدأ يكون في حيّز الفاعل لأنه مسند إليه، وكلّ المفاعيل والحال والظروف

(١) وقد ذكرت كتب النحو هذه الظاهرة، انظر: السيوطي، همع الهوامع، ص ٢٢٧ والسكون في العين لهجة ربيعة وغنم.

(٢) أبو القاسم الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، ص ٤٨، تحقيق مازن المبارك، ط ٤، بيروت.

تكون في حيز المفعول به لأنها تحتل مرتبة المفعول به من حيث التوزيع، أي إنها ترد بعد الفعل والفاعل، وهذا ما أكده الزجّاجي في قوله: "لا يتبع الفعل بعد الفاعل إلا مفعول أو ما كان في حيزه"^(١).

إنّ الخلاصة تتمثل في أنّ الاسم يكون مسنداً إليه أو مسنداً أو متمماً، أمّا الفعل فهو دائماً مسند سواء أكانت الجملة اسمية أم فعلية بسيطة أم مركبة. أما الحرف فهو كلمة ليس لها وظائف الاسم أو الفعل أي إن الحرف وحده لا يكون مسنداً إليه أو مسنداً أو متمماً.

ولذلك فإنّ العرب قد صنفوا "مع" ضمن الأسماء لأنها قد ترد في حيز المفعول به إلا النحّاس فإنه عدّها حرف جر؛ وقد كان رأيه مرفوضاً من النحاة^(٢) لأن حرف الجر لا يمكن أن يقوم مقام "مع" في المستوى التوزيعي، ثم إنّ وظائف "مع" في الجملة لا يمكن أن تسند إلى حرف جر وحده، ويشمل الاسم أجناساً مختلفة من الألفاظ منها الظروف، فما خصائص نظام الظرف؟ ولماذا صنف النحويون العرب "مع" ضمن الظروف؟ وسنحاول شرح هذه الجوانب حسب المراحل التي حدّدناها سابقاً.

أ- شكل التركيب:

لقد رأى النحاة العرب أن "كلمة" "مع" ظرف لمكان الاجتماع أو وقته" وهي اسم والدليل على اسميتها التنوين والجر على الرغم من شذوذه كقولنا: ذهب من مَعِه^(٣). والظرف عندهم قسمان: أولهما يتركب من مجموعة الكلمات الدالة على

(١) الإيضاح في علل النحو، ص ٥٠.

(٢) همع الهوامع، ج ٣، ص ٢٢٦.

(٣) الإستراباذي: شرح الكافية، ص ١٢٧. ط. بيروت، دار الكتب العلمية، وكذلك السيوطي: همع الهوامع، ص ٢٢٦.

الظرفية دلالة معجمية، أي إنها أسماء تدل على الزمان أو المكان بحكم الوضع كقولنا: يوم، ليلة، شهر. وهذا النوع سموه ظرفاً متصرفاً. أما ثانيهما فهو يتركب من مجموعة الكلمات التي تمحّضت للدلالة على الظرفية ولا تكون إلا دالة على الظرف مهما تعددت وجوه استعمالها فهي ظروف "غير متصرفة" منها مثلاً: فوق - تحت - عند - لدن - مع^(١).

إن الظرف غير المتصرف يستعمل أساساً مضافاً إلى مفرد أو جملة وذلك لتوضيح مدلوله، وهذا ما نلاحظه بالنسبة إلى "مع" فهي قد وردت مضافة إلى الظاهر والمضمر والتركيب الجزئي والجملة.

١ - الإضافة إلى المضمر: (٢)

المتكلم:

اخرج معنا يا أعيمش (الأغاني ص ٢٤).

أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضيه (الأغاني ص ٢١٩).

ما بقي معي إلا ما منعه الناس (الجاحظ ص ٩٢).

المخاطب:

فقال ما هذا معكم (الأغاني ص ٣٧٩).

من هؤلاء معك يا حاتم (الأغاني ص ٣٦٩).

(١) هذا التقسيم الدلالي يعاضده تقسيم وظائفه سنشرحه في القسم الخاص بوظائف الظرف، وسنهتم في هذا المقال خاصة بالظروف غير المتصرفة.

(٢) لقد ذكر النحاة العرب أن "مع" من الأسماء الملازمة للإضافة وهذه الخاصية ليست مقصورة على الظروف بل هناك ألفاظ عديدة تلازم الإضافة لأسباب تركيبية أو معنوية، إلا أن ملازمة الإضافة تعدّ صفة مميزة للظرف غير المتصرف، انظر على سبيل المثال: شرح ابن عقيل، ج ٣، ص ٧٢-٧٦، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. بيروت.

الغائب:

فمضيت معها (الأغاني ص ١٠٢).

وسار معهم أصحاب الشرط (الأغاني ص ١٤٧).

فتحدثت معهنّ (الأغاني ص ٣٥٤).

٢- الإضافة إلى الظاهر: نكتفي بذكر بعض الأمثلة:

وله مع خالد أخبار (الأغاني ص ٤٤).

ثم خرج مع فتية من قريش (الأغاني ص ٣٦٥).

فإني لمع أهل اليمن (الأغاني ص ١٣٩).

٣- الإضافة إلى تركيب جزئي:

النعته: بالنسبة إلى التركيب الجزئي بالنعته فقد رأينا نموذجاً في الأمثلة السابقة

وهو: "... مع فتية من قريش".

التركيب الموصولي:

"وكيف يطيب العيش مع من إذا رأى جزورية التقط الأكباد والأسنمة...".

(الجاحظ ص ٦٨).

"إذا كان لا بدّ من المؤاكلة... فمع من لا يستأثر عليّ بالمشخّ" (الجاحظ ص

٦٨).

... مع ما في ذلك من الخطار بالأنفس (الجاحظ ص ٨٣).

٤- الإضافة إلى تركيب شبه إسنادي: (١)

ولمّ رغبوا في الكسب مع زهدهم في الإنفاق (الجاحظ ص ٢).

... مع انثناء الأجزاء لكثرة الوطاء (الجاحظ ص ٨٢).

... مع سخائه على المأكول (الجاحظ ص ٧١).

(١) وهو تركيب يعوّض فيه الفعل باسم من الأسماء المشتقة القائمة مقامه.

٥- الإضافة إلى "جملة" مسبوقة بموصول حرفي: أي إلى أن وصلتها:
- ومع أن سكون العصر كان كثيراً ما يضطره إلى النوم فقد كان سكون العشية يضطره إلى اليقظة... " (الأيام ص ٣٨-٣٩).
- ومع أن هذا المقدار... من النقد قد كان يسيراً... فقد عرفنا كيف يحتالان... ليمتعا أنفسهما... " (الأيام ص ١١١-١١٢).
- وكان يعتقد أن الحظ قد ظلمه... فلم يمنحه من نباهة الذكر... ما يلفت إليه الشيوخ... مع أنه في حقيقة الأمر ليس أقل من أصدقائه فهما للعلم (الأيام ص ٥٥).

إنّ الأسماء المتمحّضة للظرفية تمثل في صلب اللغة نظاماً له مميزاته، ثم إنّ العلاقة بين مكوناته قائمة أساساً على التقابل. إن من أهم السمات المميزة لهذه الأسماء أنها تستعمل ملازمة للإضافة إذ إنّ الظروف المقطوعة عن الإضافة سماعية؛ ثم إنّ النحاة رأوها مشتملة على علامة تدل على المضاف إليه المحذوف، وهي إما التثوين كما هو الشأن بالنسبة إلى مع التي تصبح معاً^(١) وإمّا البناء مثل بناء قبل، وبعد، إذا قطعاً عن الإضافة وفي هذا المجال يقول الإستراباذي: " لا يحذف المضاف إليه إلا إذا قام قرينة على تعيين ذلك المحذوف"^(٢) ويعلّل حاجة الظروف إلى المضاف إليه بقوله: " وإنما بنيت هذه عند قطعها عن المضاف إليه لمشابتها الحرف لاحتياجها إلى معنى ذلك المحذوف"^(٣)، ولذلك فإن مع عند الإستراباذي يضاف إن ذكر قبله " أحد المصطحبين نحو كنت مع زيد وإن ذكر قبله المصطحبان

(١) لقد اختلف النحاة في تثوين "مع" فرأى بعضهم أنه تثوين تنكير لكن الرأي الغالب هو عدّه تعويضاً للمضاف إليه (همع الهوامع، ج ٣، ص ٢٢٩).

(٢) الكافية، ج ٢، ص ١٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠١.

لم يبق ما يضاف إليه^(١)، ولذلك فإن التنوين في "مَعَ" تعويض للمضاف إليه المحذوف بحكم السياق. ومما يؤكد هذا التصور عند النحاة أن الأسماء الملازمة للإضافة قد قيس بعضها على الظروف من ذلك غيرُ وحَسَبُ^(٢).

فالإستراباذي يرى مثلاً أن غير "شَبَّهت بالظروف والغايات لشدة الإبهام الذي فيها... فلماً حذف منها المضاف إليه بنيت على الضمِّ لمشابهتها للغايات بالإبهام"^(٣).

إن ملازمة الإضافة من أهم الخصائص للظروف غير المتصرفة. ونلاحظ أن أنواع الإضافة قائمة في حدّ ذاتها على التقابل، إذ إن هذه الظروف منها صنف يضاف إلى المفرد في مقابل صنف يضاف إلى الجملة. ومنها ما يضاف إلى المفرد والجملة يقابله صنف منعدم الإضافة.

الإضافة إلى المفرد:

إن هذه الإضافة تكون إلى الظاهر والمضمر وقد رأينا حسب الشواهد التي ذكرناها أن "مع" من الظروف التي تضاف إلى الظاهر والمضمر، وهي في هذه الحالة شبيهة بتحت وفوق وعند وأمام... ولكن هذا النوع من الإضافة قائم على التقابل بين مجموعة من الظروف تضاف إلى المضمر والظاهر وبين مجموعة لا تضاف إلا إلى الظاهر منها منذ ومد وعوض^(٤) ويمكن أن نعدّ الإضافة إلى الجملة إضافةً إلى الظاهر لأن هذه الجملة تعوّض نظرياً، بالمفرد على الرغم من أن

(١) الكافية، ج ٢، ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٤) إضافته شاذة فقد جاء في همع الهوامع (ص ٢١٢) أنه يضاف إلى العائضين "كقولهم لا أفعل ذلك عوض العائضين أي دهر الداهرين".

الجملة لا تقوم مقام المفرد في مستوى الاستعمال.

الإضافة إلى تركيب جزئي:

إن النحاة العرب يرون في ميدان التركيب أن المفرد لا مقابل له إلا الجملة، ولذلك فإن التركيب الجزئي مهما كان نوعه يقوم مقام اسم مفرد وتسنده إليه الوظيفة النحوية على أنه اسم مفرد، وهذا التصور نجد جذوره عند سيبويه عندما أكد أن النعت والمنعوت "كالاسم الواحد"^(١) إلا أن المتأخرين اهتموا في مستوى الإعراب وتحليل الجملة بالمفردات وتحديد وظائفها أفقياً فقسموا المكونات إلى صنف له محل من الإعراب وصنف لا محل له من الإعراب. ولئن اتصف التركيب الجزئي بالتضام بين عنصرين فإن هذه العلاقة لا ينتج عنها تركيب إسنادي قائم بذاته بينما التضام القائم على الإسناد أي على توافر عنصرين مستقلين وهما المسند والمسند إليه هو الشكل الوحيد الذي تتولد عنه جمل مفيدة، ولهذا عدّ العرب التركيب الجزئي شكلاً من أشكال المفرد لأنه يؤدي في مستوى الجملة وظيفه الاسم المفرد.

وقد أشار "أوتوجسبرسن" في كتابه "فلسفة النحو"^(٢) إلى هذه الثنائية، وبيّن أن الوحدات اللغوية في الخطاب تقوم إمّا على علاقة تضام (Jonction)، وإمّا على الترابط الذي تكون فيه المكونات منفصلة وليست ملتحمة كما هو الشأن بالنسبة إلى التضام، إلا أنها تكون نواة إسنادية (Nexus). إن المكونات التي

(١) انظر كتاب سيبويه، ج ١، ص ٤٢١، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط ٣. ١٩٨٣ م.

(٢) أوتوجسبرسن: فلسفة النحو (مترجم عن الإنجليزي)، ط. باريس ١٩٧١ م. الفصل الثامن: التضام وتركيب النواة.

- Otto Jespersen: La philosophie de la grammaire traduit de l'Anglais par Anne-Marie Léonard. Ed. Minuit, Paris, 1971.

Chap: Nexus et Jonction, p.p 139-151.

تتصف بالتضام شبيهة في العربية بالتركيب الجزئي . لقد صنف النحاة العرب "مع" ضمن الأسماء التي تلازم الإضافة إلى المفرد وقد تبين من خلال المدونة أنها تضاف إلى مفرد أو تركيب جزئي له منزلة المفرد، أما الإضافة إلى جملة مسبقة بموصول حرفي وهو "أن" فإنها لا تخرج عن نطاق الإضافة إلى التركيب الجزئي لأن الموصول مع صلته بمثابة الاسم الواحد^(١).

إن كلمة "مع" ظرف لأنها ملازمة للإضافة إلى مفرد أو إلى ما قام مقامه، وبذلك تكون في علاقة تقابل مع الظروف التي لا تضاف إلا إلى جملة وهي: إذ - إذا - حيث - لما - ريث - كلما.

ونستخلص في خاتمة هذا القسم الخاص بشكل التركيب أن تركيب الظرف الذي يصيغ في شكل إضافة له نظام قائم على التقابل في ثلاثة مستويات وهي:

- ١- الإضافة إلى المضمرة والظاهر ≈ الإضافة إلى الظاهر.
- ٢- الإضافة إلى المفرد ≈ الإضافة إلى الجملة.
- ٣- الإضافة إلى المفرد والجملة ≈ منعدم الإضافة

بالنسبة إلى المستوى الثالث نلاحظ أن - منذ - مذ - لَدُنْ ظروف تضاف إلى المفرد والجملة بينما متى - أين - أيان - كيف - أمس - الآن . لا تستعمل مضافة فهي تكاد تكون جنساً قائماً بذاته وخاصة متى - أين - أيان - كيف، وقد شعر القدماء بذلك وصنفوها ضمن الظروف بالاعتماد على مدلولها المعجمي والنصي، فرأى بعضهم مثلاً أن "كيف" ليست ظرفاً ولكنها لما كانت تفسر بقولك على أي حال، لكونها سؤالاً عن الأحوال العامة سميت ظرفاً لأنها في تأويل الجار والمجرور واسم الظرف يطلق عليها مجازاً^(٢).

(١) قد تضاف مذ أو منذ إلى أن وصلتها (همع الهوامع، ج ٣، ص ٢٢٦).

(٢) السيوطي: همع الهوامع، ج ٣، ص ٢١٥-٢١٦، وهذا الرأي ينسب إلى ابن مالك.

أما متى وأين وأيان فهي أسماء استفهام فيها معنى الظرف يسأل بها عن الزمان أو المكان، إذ إن متى وأيان للزمان وأين للمكان.

أما الآن وأمس فكلاهما معرفة ولذلك فهما لا يحتاجان إلى الإضافة التي توضح الإبهام. إن النحاة العرب لم يعتمدوا فقط شكل التركيب لتصنيف "مع" ضمن الظروف بل إنهم قد اعتمدوا كذلك الوظائف التي يكتسبها هذا الاسم.

٢- الوظائف النحوية لاسم المصاحبة "مع" وعلائقها بنظام الظرف:

- الوظائف النحوية:

إن المبدأ الذي انطلقنا منه في هذا المقال هو أن الظروف غير المتصرفة هي التي تمثل نظام الظرف في العربية، وقد حدد النحويون العرب خاصيتين مهمتين لتمييز هذه المجموعة من الكلمات من غيرها وهما:

أ - الدلالة: هذه الظروف قد تمحضت للدلالة على الظرفية فهي مهما كان استعمالها تدل دائماً على الظرفية، وإذا دلت على غير ذلك وجدنا بعض النحاة يميل إلى القول بأنها حرف، فأهل الكوفة مثلاً يرون أن "إذا" الدالة على المفاجأة حرف.

ب - الوظيفة: وهذه الخاصية أهم من الأولى، إذ إن النحاة غلبوا مقياس الوظيفة النحوية حتى في تصنيف المجموعات التي تنتمي إلى قسم الاسم، فهم قد قرروا أن الظرف المتصرف هو ما استعمل "مبتداً نحو يوم الجمعة يوم مبارك ومكانك حسن وفاعلاً نحو جاء يوم الجمعة وارتفع مكانك" (١).

ونتيجة لما تقدم فإن الظروف غير المتصرفة لا تكون مسنداً إليه وإنما تكون مسنداً مقدراً بفعل في أغلب الحالات، أو متمماً من نوع الصفة (أي نعت) أو متمماً من

(١) شرح ابن عقيل، ج ١، ص ٥٨٧.

حيز المفعول به (أي حال أو مفعول فيه . . .) إنها لا تكون مبتدأ أو فاعلاً أو اسم ناسخ أو نائب فاعل^(١).

إنّ النحويين العرب قد اتخذوا من هذه الخاصية مقياساً أساسياً لتمييز الظرف من الاسم، فهم قد قرروا أن الظرف غير المتصرف إذ ورد مسنداً إليه خرج عن الظرفية وعومل معاملة الاسم أو الظرف المتصرف الذي يدل على الزمان أو المكان دلالة معجمية أي إنه لا يمثل حينئذٍ خصائص نظام الظرف، فمثلاً "دون" قد ورد عند الكوفيين والأخفش متصرفاً ولكن بقلّة ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ فقد قال الأخفش إن "دون" مبتدأ^(٢).

وقد قال ابن مالك كذلك عن الظرف "الآن" إنه قد يخرج عن الظرفية إلى الاسمية كما جاء في الحديث "فهو يهوى في النار الآن حين انتهى إلى قعرها" ورأى أن "الآن" في موضع رفع بالابتداء وحين انتهى خبره^(٣).

وهذه الملاحظات التي نجدتها عند القدماء تدلّ على أن هذه الكلمات كانت في الأصل تعامل معاملة الأسماء ثم تمحضت للدلالة على الظرفية، وهذه الاستعمالات ليست إلا "ركاماً" لغوياً يدل على مراحل من تطور اللغة^(٤).

إنّ هذا المبدأ قد جعل القدماء يصنفون "مع" ضمن الظروف غير المتصرفة انطلاقاً من وظائفها في الجملة، فهي حسب رأي السيوطي "تقع خبراً وصلة وصفة

(١) انظر: شرح ابن عقيل، ج ١، ص ٥٠٧-٥٠٨، حيث يقرر المؤلف أن الظرف الذي لا يتصرف لا يجوز أن ينوب عن الفاعل.

(٢) السيوطي: همع الهوامع، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨٤.

(٤) هذا التطور شبيه بالتطور الذي عرفته كان وأخواتها إذ تحولت من الفعلية إلى الاختصاص بالجملة الاسمية لتضيف إليها معنى الزمن دون الحدث مما جعل الزجاج يعدّها حروفاً.

و«حالا» ونلاحظ من خلال المدونة أن أهم الوظائف كانت حسب الترتيب التالي:

١- الخبر: من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

ومعه أهل البلد (الأغاني ص ١٤٤).

هذا مع حلم عمّن جهل (المصدر نفسه ص ١٦٧).

وقد يرد تركيب المعية خبراً ثانياً أو خبراً للناسخ:

"هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع" (المصدر نفسه ص ١٦٣).

ليس معه شيء (الجاحظ ص ١٢٩).

٢- الحال: إن "مع" قد وردت في تركيب جزئي وظيفته حال، وقد ترد خبراً

في جملة بسيطة وظيفتها حال، وهذه الجملة هي نفسها داخلية في جملة كبرى ثم

إنها تستعمل مقطوعة عن الإضافة بصفة متواترة أكثر من الحالتين السابقتين^(١).

- "مع" مقطوعة عن الإضافة:

وكان قد اتفقا على أن يذهبا إلى القاهرة معاً (الأيام ص ١٠٧).

- التركيب الجزئي:

فقالوا: من هؤلاء معك يا حاتم (الأغاني ص ٣٦٩).

- التركيب الإسنادي ضمن جملة كبرى:

فانصرف عنه ومعهم صديقه (الأيام ص ١٧١).

وأقبل ومعهم كتاب ضخم (الأيام ص ٦٧).

ونلاحظ أن "مع" تستعمل بمعنى "على الرغم من..." في التراكييب التي

وظيفتها حال من ذلك.

(١) السيوطي: همع الهوامع، ص ٢٢٦.

"ولمَ اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنفتهم من ذلك الاسم" (الجاحظ ص ٢)
 "فقلت كيف أخرجته مخرج الهزء وحياتي في يدك مع معرفتي بك" (الجاحظ
 ص ٣٨).

وقد يتقدم تركيب المعية الذي بمعنى "على الرغم من . . ." فيكون في صدر
 الجملة إلا أنه يعرب حالاً وهذا التقديم قد تكرر في الأيام وهو من باب التصرف
 الأسلوبى، من ذلك هذه الجملة التي سبق ذكرها في الحديث عن الإضافة:
 ومع أن سكون العصر كان كثيراً ما يضطره إلى النوم فقد كان سكون العشية
 يضطره إلى اليقظة (الأيام ص ٣٨-٣٩).

٣- صلة الموصول: من ذلك:

ورأى قلة من معه (الأغاني ص ١٥٠)

. . . وأن هؤلاء الذين معه رؤوس أصحابه (المصدر نفسه ص ١٤٥)

لقد قرر النحاة أنه من خصائص الظرف المكاني أن يرد صلة، ومع تأتي لتفيد
 مكان الاجتماع أو وقته ولذلك فإن استعمالها صلة ليس فيه خروج عما قرره.

٤- النعت:

وكانت لقصة الغلام مع الشيخ عواقبها (الأيام ص ٧٨).

ولقد رأيت رجلاً ضخماً فخم المعاني . . . مع علم جمّ . . . (الجاحظ ص ٥٧)

إننا نستنتج أن مع لم ترد مسنداً إليه في المدونة، ثم إن استعمالها لم يخرج
 عموماً عن الوظائف التي حددها النحاة على الرغم من أن المدونة اتصفت
 بنصوصها بالإبداع الأسلوبى. إن معاني "مع" كانت متعددة، لكن هذه الدلالات
 قد تمت صياغتها في نطاق الأشكال التركيبية والوظائف التي وضعها النحاة، لقد
 كانت هذه الوظائف شاملة لمجموعة كبيرة من الظروف (عند - فوق - تحت . . .)
 ولم تكن خاصة بمع، ولهذا السبب ذاته صنف النحاة "مع" ضمن الظروف وكذلك

فإن هذا التنوع دليل على أن الظرف من خصائصه أن تتعدد وظائفه، فهو، على الرغم من تعلقه بالفعل الذي يكون دائماً مسنداً، يشاركه في هذه الوظيفة ويتجاوزه ليستوعب وظائف المكونات المتممة.

إن هذه الوظائف المتعددة لها صلة عميقة بمعنى الظرف الذي يدل أساساً على الوعاء، ولذلك قال الزجاجي "إن الظروف كلها مفعول فيها"^(١) فهذا المعنى الأصلي للظرف ثابت على الرغم من تغير الوظائف وتعدد المعاني المتولدة عن السياق، ولكن النحاة، على ذلك، أهملوا الوظائف التي يفيد فيها تركيب المعية المصاحبة، فهم قد قالوا مثلاً: إن "مع" تفيد المصاحبة في الوقت في قولنا: جئت مع زيد، ولكنهم لم يحددوا نوع الوظيفة تحديداً صريحاً.

إن النظر في أقوال النحاة عن الظرف وتحليل آرائهم في الأسباب التي جعلت المفعول معه منصوباً أي المفعول معه بعد واو بمعنى مَع والتفكير في الجدل حول معاني النصب أشياء تدفعنا إلى القول بالرأي التالي وهو عدّ تركيب المعية الوارد في الجمل التالية مفعولاً فيه يفيد الزمان أو المكان، وذلك حسب معنى الجملة، وهنا نضطر إلى اعتماد المعنى لتحديد الوظيفة:

يخرج من غرفته مع الفجر (الأيام ص ٦٣)

المعنى المستفاد هنا: زمن الخروج من الغرفة

- اندفع معه الشباب (الأيام ص ٤٤)

في هذه الجملة الاندفاع كان من المصطحبين في زمن واحد، ولذلك فإن تركيب المعية يفيد الظرفية وهو مفعول فيه.

- فأجلسه معه على السرير (الأغاني ص ٢٤١)

(١) الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، ص ٥٠.

أفاد تركيب المعية في هذه الجملة المصاحبة في المكان فتكون وظيفته ظرف مفعول فيه .

إن رأي الأخص في نصب المفعول معه جعلنا نقدم هذا التفسير . يرى الأخص أن المفعول معه منصوب " انتصاب الظرف " لأن قولنا قمت وزيداً الواو في هذا التركيب واقعة موقع مع إذ الأصل قمت مع زيد .

إن المفعول المنصوب بعد واو بمعنى مع باب ضيق ، وقد أشار النحاة إلى ضرورة اعتماد السماع فيه . إنهم يرجعون المفعول معه المنصوب بعد الواو إلى سبب معنوي وهو الخلاف ، أو سبب تركيب وهو عدم جواز العطف على ضمير مخفوض ، إلا أن المتأمل في جدل النحاة حول المفعول معه يستنتج أن أصل التركيب قائم على العطف ، ولذلك نجد عرضاً للحالات التي يجوز فيها العطف والنصب على المفعولية ، وأن معنى " مع " في المفعول معه معنى سياقي لأن " مع " والواو يدلان على الجمع بين شيئين ، وهو معناهما الأصلي ، وليس من الغريب أن تتقاطع الواو مع اسم المصاحبة وتكتسب معناه . ونستخلص أن النصب فرع يعود إما إلى سبب معنوي أي إن هناك معاني لا يجوز أن تقوم بينها علاقة عطف ، وإما إلى سبب تركيب وهو امتناع العطف لأسباب تنافي خصائص التركيب الجزئي بالعطف .

ولقد اهتم النحاة بالمفعول معه المنصوب لأنهم حصروا تفكيرهم في عوامل الرفع والنصب أساساً ، إذ إن هذه العوامل قد تكون خفية مقدرة ، أما عوامل الجر فهي لا تكون إلا لفظية إما بالإضافة وإما بحرف جر ولعلهم أهملوا بعض وظائف التركيب الجزئي بالجر لهذا السبب ، بينما أطنبوا في تحليل معاني حروف الجر واستقصائها .

إننا نستخلص أن النحاة يرون " تركيب المعية " تركيب ظرف يفيد من حيث المعنى المصاحبة في الزمان أو المكان ، إلا أن وظائفه النحوية متعددة مثل تركيب

الظرف الذي يفيد الوعاء ويقدر بـ "استقر" إذ إن معنى الاستقرار لا يفارقه إلا أن وظائفه تتغير حسب موضعه في الجملة.

وأختم هذا العرض الموجز لوظائف تركيب المعية بالإشارة إلى قضية الإعراب والبناء.

إن اسم المصاحبة "مع" معرب لأنه قد يجزّ بمن فيقال جئن من معه، وهذا الاستعمال شاذ بالنسبة إلى مع. ولكن ذلك دليل على أن الظروف تشتمل على قسمين: قسم لا يسبق بحرف جر مثل إذ - إذا - منذ - مذ - لمّا، وهذه الظروف "ممكنة" في الظرفية، وقسم يستعمل مجروراً فيعامل معاملة الظرف المتصرف ويعرب، ويستعمل كذلك مجرداً من حرف الجر فيبنى أو ينصب كما هو الشأن بالنسبة إلى الظروف غير المتصرفة أو الممكنة، ومما يدل على نزعة الظروف غير المتصرفة إلى البناء أنها تبنى على الحركات الثلاثة كما أنها تبنى كذلك على السكون (إذ - أمس - منذ - حيث - دون - مع). وهذا ما يفند رأي بعض النحاة في أن فتحة "مع" فتحة إعراب، أي نصب على المفعولية. إن النصب كما نتبين من خلال كتاب سيبويه يدل على الظرفية الزمانية أو المكانية كما يدل على معان عديدة لم يشر إليها النحاة، لأنهم قاسوا المتممات على المفعول به ثم قاسوا الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، ومعاني النصب، بل إن معاني الحركات لا تظهر إلا في الجملة الإنشائية.

٣- اسم المصاحبة "مع" ودلالته:

نتناول في خاتمة هذا المقال قضية الدلالة وهي جديرة بدراسة معمقة إلا أننا سنكتفي بتقديم ما له علاقة بموضوع المقال.

إن التعبير عن الظرفية في اللغة العربية يكون بالجار والمجرور أو بالأسماء

المتمحضة للظرفية، ثم إن النحاة العرب قد أطنبوا في تحليل معاني الظروف وحروف الجر، إلا أن ذلك قد كان مشتتاً ولم يجمع لترتب مادته وتنظم حسب فصول وأبواب.

ولكن النحاة العرب كان لديهم تصور واضح للنظام الدلالي الذي يقوم عليه الظرف. إنه نظام يستمد توازنه من التقابل بين معنيين أساسيين وهما: معنى الوعاء ومعنى المصاحبة.

أ - الوعاء: أن الظرف عند العرب وعاء للفعل فهو عبارة عن المجال الزماني أو الحيز المكاني الذي يقع فيه الفعل ولذلك يقول سيبويه^(١):

"إن الظروف تقع فيها الأشياء"

"وإنما الأصل في الظروف الموضع والمستقر من الأرض"^(٢).

"وهذه الظروف أسماء ولكنها صارت مواضع للأشياء"^(٣) والوعاء لا يكون إلا زماناً أو مكاناً، ولذلك فإن مفهوم الظرف في العربية لا يطابق مفهوم (adverbe) في اللغات الأوربية، إذ إن معنى الهيئة في العربية أي الحال يعبر عنه بأسماء مشتقة، وما جاء جامداً أولً بالمشتق، إن النحاة قد اهتموا بمعاني الظروف الدالة على الوعاء كالتعميم والتقسيم والتبويض والغاية وهي من أهم المعاني، إلا أنهم لم يقيموا جسراً بين المعنى والوظيفة، وظلت وظيفة المفعول به أو المفعول فيه هي المسيطرة.

ب - المصاحبة: إن هذا المفهوم يعبر عنه أساساً بتركيب المعية وقد يعبر عنه بحروف الجر لكن اسم المصاحبة هو الأداة الأساسية. إن المصاحبة لها معنى أصلي

(١) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٤٠٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٠.

وهو التزامن أي "الاتحاد في الوقت" حسب عبارة القدماء، ويتفرع عن هذا المعنى الاجتماع في المكان لأن الظرف يتعلق كما ذكرنا بالفعل، ثم إن المعاني السياقية لم تدرس إلى الآن دراسة ضافية، فنذكر على سبيل المثال أن "مع" قد تفيد الجمع بين شيئين متعارضين فتستعمل عندئذٍ بمعنى "على الرغم من" كما أنها تفيد أحياناً التحليل أو المقارنة بين عنصرين في الجملة.

إن تركيب المعية تركيب ظرف له خصائصه المميزة له من سائر التراكيب الظرفية. أما ركنه الأساس فهو اسم المصاحبة "مع"، وهو اسم يُعدّ عنصراً أساسياً في نظام الظرف سواء في مستوى التركيب أم الوظيفة أم المعنى. وهذا النظام بل كلّ نظام عبارة عن بناء متماسك إذا غيرنا توزيع عناصره اضطرب وانهار، وكذلك الشأن بالنسبة إلى النحو العربي، فنحن بين أمرين: إما أن نجدد في إطار هذا الصرح فنبرز ما أهمله القدماء ونحلل ما أشاروا إليه بإيجاز، وإما أن نصف اللغة العربية وصفاً جديداً فيه اعتماد على مناهج ومقولات جديدة، ومهما كان الأمر فإن هذا التراث النحوي يظل أداة ضرورية لفهم أسرار العربية.

* * *

المصادر والمراجع

- ١- أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة/ فاضل مصطفى الساقى . -
القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٢- التطور النحوي للغة العربية/ برجشتراسر؛ تصحيح رمضان عبدالنواب ..
القاهرة، ١٩٨٢م.
- ٣- شرح ابن عقيل/ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، [دم. دت].
- ٤- شرح المفصل/ لابن يعيش .. [دم. دت].
- ٥- الكتاب/ لسيويه؛ تحقيق عبدالسلام محمد هارون.. ط٣.. بيروت، ١٩٨٣م.
- ٦- همع الهوامع/ لجلال الدين السيوطي؛ تحقيق عبدالعال سالم مكرم.. ط١..
الكويت، ١٩٧٧م.

* * *